تغييب المثقف عن الساحة

بلند الحيدري

ليس من الجديد في شيء ان نقول: بان انتصارات الشعوب في حروبها ما كان لها ان تتحقق لو لم يسندها في ذلك الشيء الكثير من عمق ايمانها بعدالة قضيتها وجدوى نضالها من ناحية، ومن ناحية أخرى لو لم يسعفها مدى وعيها بقدرتها وامكاناتها ووضوح ماتتطلع اليه في الغاية المرجوة، الى جانب ما وقعت اليه من معرفة عامة بكل ظروف عدوها وامكاناته وبمداخل حياته الاجتماعية والنفسية لتوسّع من أساليب غزوه. وللمثقف دوره المهمّ، والمهمّ جداً في ذلك الايمان بالقضية العادلة، وفي تعميق وعي الشعب بنفسه، فالشعب بالتالي ليس كماً من الناس، بل هو، وفي الدرجة الاولى وعي الشعب بنفسه وبحضارته وتاريخه وانسانيته، وان اي اعتراف منا بهزيمتنا في أية ساحة كانت، انما تستبطن ضمناً ادانة واتهاماً للمثقف بالقصور في اداء واجبه، وباخلاله بما انتدب اليه، غير ان هذا الاتهام وتلك الادانة قد يصبحان بدورهما اصبع اتهام وادانة موجهة ضد كل الذين سلبوه دوره وانتزعوا حريته كي لا يكون اكثر من اسد «سيرك» عليه ان يتقن ألعابه البهلوانية في انتظار ان يحظى بقطعة الحلوى الصغيرة، أو دفعاً للسوط من ان يهتز ويلسع ظهره.

وهذا ما اختلفت الينا ضروب متعددة منه بعد ان احتكر السياسي بالصدفة، دوره في القائد والفيلسوف والمفكر والمؤرخ والعالم والاديب، مستعيناً بما وفرت له سلطته الجائرة من وسائل يتوسل بها لنفي ما لا يدور في فلكه حاكماً ومفكراً وفيلسوفاً.. الخ مما لم يُبْقِ للمثقف من ابناء هذه الامة غير مهنته في التابع الخانع الذي اوكل اليه الحاكم ان يقوم بخدمته ويمسح جزمته صباح مساء، ويلمّع اوسمته التي خلعها هو على نفسه، وفرض على ابناء وطنه ان يتخذوا منها مقاساتهم لتقدير فراعة قامته وضخامته شأنه، ومن أبى من المثقفين ان يكون غير ما أريد له فما عليه الا ان ينسى ما كان ان تثقّف به في يوم ما قبل ان يسعى الآخر لانسائه وتحويله الى واحد من القردة الهندية الثلاثة.

وبأثر من مهنة تلميع الأوسمة المزيفة التي شاع وذاع صيتها بين الكثيرين من المثقفين الداعين لها والمتفاضلين على غيرهم بها، تحول دورهم من السعي الى توحيد الهدف وايضاح معالم الطريق، الى دعاوى للتجزئة والتفرقة اندفاعاً وراء هذا الحاكم او ذاك، والى اذكاء المعارك الحامية بين الاقطار العربية، لتستحيل الأواصر حدوداً وسدوداً مهنية وحواجز قاسية وبوابات لسجون مفتوحة على بعضها البعض، مما مهد لاسرائيل ان توسع من حرية حركتها بعد ان ادركت ان شأنها بالنسبة لنا يضعها في العدو الثاني، اذ ان لكل قطر عربي، مع الاسف، من جاره وشقيقه العربي عدواً أول له يكفيها مغبة محاربته لها، وان لكل من هذه الاقطار حقيقته النسبية الموهومة التي نالت من وحدة الهدف في الوقوف والتصدي واعانت العدو على طغيانه، فثمة من يخشى على غناه من أي تأكيد في الانتساب يلزمه بشيء من التضحية، وهناك من آثر ان يستعدي الغريب على قريبه تأكيداً لهيمنته.. وهناك من باع نفسه في أسواق النخاسة الدولية.. وهناك.. وهناك... وبذلك فوّتنا على انفسنا فرصة ذهبية رائعة لأن نفرض، بغنانا وتاريخنا، ووحدة موقفنا، وامكاناتنا الهائلة، دورنا الحضاري في العالم أجمع.

وان ما يبيّت للعرب من قبل اعدائهم، متعددي الوجوه والمبادىء والاشكال والملابس، لكبير وخطير، وان اسرائيل اذ ترفض ان يكون لها دستور يلزمها بحدود واضحة كباقي دول العالم، انما تفعل ذلك لغاية في ان تتعاضل حدودها وحدودنا بأكثر من معنى في الواقع والرمز، فلا يستقيم لنا أمر الا بارادتها التي تطمح الى تفريقنا أمماً وشيعاً، والى ان نتحول أسواقاً لصادراتها بمختلف اشكالها الاقتصادية والفكرية، ومصادر لتعزيز اقتصادها. وان العلم بكل ذلك يستوجب على المثقف ان يعي مدى كبر مسؤوليته، ويستوجب على الحاكم ان يدرك أن غياب المثقف عن الساحة هو غياب لوعي الشعب بنفسه، وان عزله ونفيه وسلب حريته هو ضرب من الوأد لكل مقومات الامة في ان تنتصر على اعدائها، ولبنان اذ يذكرنا اليوم، عبر محنته، بذلك، انما يذكرنا في الوقت ذاته باننا، شئنا أم أبينا، كنا من بعض اسباب تلك المحنة بتفرقنا وتخاذلنا وانانيتنا، وان من استفرده العدو اليوم سيستفرد غيره من الاقطار العربية واحداً إثر الآخر ان لم نتوحد في الهدف والرؤية والجهد المتناسق.. وان لم ندرك ان من العار ان لا نسمح للمثقف ان يعمق حسنا ووعينا بكل ما يحيط بنا من الاخطار والنوايا السيئة، وبكل ما يبيت لنا عدوّنا.

لندن